

أزمة الهوية الإنسانية في ظل الثورات البيوتكنولوجية.

Title in English, The crisis of human identity in light of biotechnological revolutions.

خالد أودينة *

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

البريد الإلكتروني: k.oudina@univ-skikda.dz

تاريخ القبول: 2025/03/05

تاريخ الاستلام: 2024/09/22

الملخص:

حاولنا من خلال هذا المقال الإشارة إلى الأزمات الوجودية التي أصبح العالم الإنساني المعاصر يعيشها، خاصة في الآونة الأخيرة، وتحديدًا أزمة الهوية الإنسانية التي فقدتها الفرد نتيجة ما أصابه من أمراض نفسية واجتماعية، وكل هذا مرده هو التطور المتسارع واللاعقلاني للبحوث البيوتكنولوجية التي غيرت من ذاتية الفرد وهويته وتلاعبت بأصله وصفاته، ومست بقيمه وحيثيته واستقلاله، كالهندسة الوراثية والتلاعب الجيني، والاستنساخ... إلخ. مما دفع الكثير من الفلاسفة إلى إعادة النظر في مثل هذه البحوث ومحاولة تشريحها والتحذير من مخاطرها وأثارها الوجودية والقيمية على هوية الإنسان وتكوينه البيولوجي والنفسي والاجتماعي، ونتيجة ما تركته من تحويل وتبديل على مستوى هوية الفرد والمجتمع وحضارتهما، مع الإشارة إلى طرق تفاذي والوقاية من هذه الانعكاسات السلبية، وتحديدًا لا حصرًا ما نجده كل من برغسون، وهيدجر، هابرماس... إلخ.

الكلمات المفتاحية: البيوتكنولوجيا، الهوية، الوجود، البيولوجيا، الروح.

Abstract:

Through this article, we have tried to point out the existential crises that the contemporary human world has become experiencing, especially in recent times, and specifically the crisis of human identity that the individual has lost as a result of the psychological and social diseases he has afflicted. All of this is due to the rapid and irrational development of biotechnological research that has changed the The individual's self and identity, and tampering with his origin and characteristics, and

* المؤلف المرسل: خالد أودينة، الإيميل: k.oudina@univ-skikda.dz

affecting his values, freedom, and independence, such as genetic engineering, genetic manipulation, cloning,...etc. Which prompted many philosophers to reconsider such research and try to dissect it and warn of its dangers and its existential and moral effects on human identity and its biological, psychological and social composition, and as a result of the distortion and change it left at the level of the identity of the individual, society and their civilization, with reference to ways to avoid and prevent these negative repercussions. Specifically, but not limited to, what we find in Bergson, Heidegger, Habermas...etc.

Keywords: biotechnology, identity, existence, biology, spirit

مقدمة: يشهد التاريخ العلمي على وجود شذوذ على مستوى الكثير من العلوم تحديدا علوم الحياة التي بقيت في حالة تعثر حتى بدايات ق19م، في الوقت الذي كانت العلوم الفيزيوكيميائية قد تخطت جل العراقيل الاستمولوجية لتكون من أبرز العلوم المتقدمة في مجال التنظير والتطبيق، لكن في القرن التاسع عشر وفي ظل شروط معرفية وابستيمولوجية محددة تطورت العلوم البيولوجية وتغيرت بدرجة جد عظيمة، واستمرت بهذا الشكل وبسرعة في القرن العشرين، ويرجع ذلك إلى التطور الذي حصل في علمي الفيزياء والكيمياء، وتوسيع المعارف وطرق انتشار الثقافة والتقنية، وهو ما أعطى للدراسات البيولوجية دعما قويا وحاسما، انطلاقا من إرجاع الظواهر الحيوية البسيطة إلى آليات فيزيوكيميائية صرفة، بهدف الكشف عن أسرار الحياة والتحكم فيها واكتساحها، وهذا ما يمكن أن نجده في المرحلة الراهنة التي سيطرت عليها النزعة الآلية على الدراسات الحيوية، حيث أصبحت للآلية في اللحظة الراهنة من المعرفة البيولوجية موقفا صلبا للغاية نظرا لنجاحاتها اليومية المبهرة على جميع الأصعدة والمجالات.

إلا أن النتائج المترتبة على هذا التطور البيوتكنولوجي الذي تسارع بشكل رهيب، السبب الذي دفع بالكثير من الفلاسفة المعاصرين إلى الالتفات إليه، ومحاولة إعادة النظر في كل ما نتج عنه، لأن التقنية الحيوية أصبحت كابوسا ومرضا قاتلا للوجود الإنساني وقيمه الأخلاقية، ليتحول الإنسان في ظلها إلى وسيلة وعقله إلى أداة، وبهذا أصبحت البيوتكنولوجيا، أو التقنية الحيوية وسيلة مهددة ومدمرة للحضارة الإنسانية وهويتها، ومن بين أهم الفلاسفة المعاصرين الذين اهتموا بهذه الإشكالية وحاولوا أن يرجعوا الهوية التي ضاعت من الإنسان في ظل سيطرة وطغيان التقنية الحيوية هو الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون" بنزعتة الحيوية الجديدة، ومارتن هيدجر وهابرماس،...إلخ، والسؤال المطروح: ما حقيقة البيوتكنولوجيا؟ وما أثرها وانعكاساتها على الهوية الإنسانية؟

أولا . مفهوم البيوتكنولوجيا وتطورها:

إن أي بحث يجب أن يخضع إلى أسس منطقية، حيث يتم من خلاله ضبط التصورات من أجل الفهم والتأسيس الصحيح للقضية المطروحة، ومنه البحث عن الحجج التي تثبت انعكاسات التقنية الحيوية على الهوية، ومعنى ذلك أنه يجب ضبط مفهومي البيوتكنولوجيا، فيا ترى ما معناها؟

إن البيوتكنولوجيا: biotechnologie مصطلح مركب من مقطعين: المقطع الأول: البيولوجيا biologie، علم الحياة science de la vie وهو مصطلح يوناني يتكون من لفظتين: بْيوس bios ومعناها الحياة، ولوغوس logos ومعناها العلم وهو مصطلح حديث، حيث أطلقه الفرنسي "لامارك" Lamarck (1829.1744)، حيث أن البيولوجيا عنده هي ما يهتم بدراسة الأحياء من نباتات وحيوانات، مرتكزا في دراساته على أسس علمية، حيث عرفها بقوله: "أن الحياة هي حالة الأشياء التي تسمح بحركة العضوية تحت تأثير الحاثات (Lamarck, 1907, p. 15). والثاني: التكنولوجيا théchnologie، التي تعرف بأنها كلمة يونانية الأصل تنقسم إلى قسمين: théchné ومعناها الفن والحرفة، و logie وتعني: علم والدراسة، وتعد علما تطبيقيا يهتم بدراسة الإضافات والتطورات في العديد من المجالات، و يعرفها "جميل صليبا": " بأنها علم التقنيات، وهو يدرس الطرق التقنية من جهة ما هي مشتملة على مبادئ عامة أو من جهة ما هي متناسبة مع تطور الحضارة، ومن بين مسائلها دراسة تطور الطرق التقنية في أحد المجتمعات الإنسانية أو في المجتمع الإنساني العام. (صليبا، 1982، صفحة 333). ومنه فالبيوتكنولوجيا كما ورد في (القاموس الموسوعي) هو: "مجموعة من الطرق والتقنيات المستعملة في معالجة الظواهر البيولوجية لغايات صناعية، سواء في المجال الزراعي، كتحسين الوراثة، تعديل الأنواع، تربية الحيوانات والنباتات المائية Aquaculture، وفي الصناعة الغذائية والصيدلانية، كالتخمير Fermentation والحفظ وعلم الوراثة، علم الأحياء الإلكتروني Bionique وعلم الحماية والتغذية diététique . (Encyclopédique, 2001, p. 204)

وفي ذات المعنى نجد أن "عمر بوفتاس" يعرف التكنولوجيات الحيوية بأنها مختلف أشكال التدخلات التقنية في مجال الحياة عموما وتحديدًا الإنسان، ومحاولة القيام بمختلف التجارب على الجسد الحي من أجل علاجه، أو ترميمه عن طريق مختلف العمليات التقنية، كزرع الأعضاء

والأنسجة والخلايا، أو العمل على إبقاء الجسد حيا عن طريق تقنيات وأجهزة جد متطورة وملائمة لذلك، أو تخليصه من حياته والتعجيل بموته لتخليصه من معاناته (الموت الرحيم)، أو محاولة تشخيص الأجنة لحظة إخصابها حتى الولادة، لمعرفة أمراضها المحتملة وإجراء مختلف عمليات الإخصاب والحمل الاصطناعيين وفق تقنيات الإنجاب الحديثة، أو التدخل في الجهاز العصبي بواسطة الجراحة ومحاولة ترميمه بطرق تقنية جد متطورة، كزرع الخلايا الجذعية أو عن طريق العقاقير... الخ. (عمر، الصفحات 6-7).

وقد أكد البيولوجي الإنجليزي "جوليان هكسلي" Julian Sorell Huxley (1887-1975) عام 1936 بنظرة استشرافية أن التكنولوجيا الحيوية ستكون بالمستقبل أهم من الهندسة الميكانيكية والكيميائية، وهذا راجع إلى دورها الفعال والمهم في الحياة وكيفية الحفاظ على حياة الكائنات الحية، وتحديد الإنسان، وهو ما دفع بالعلماء والاقتصاديين إلى محاولة دعم هذا التخصص العلمي بأرقى التقنيات ذات الأساس البيولوجي بهدف إعطاء حلولاً مساعدة على وضع حد للأزمات والمشاكل الإنسانية، والعمل على تحسين حياة البشر.

والمعروف أن الدراسات البيوتكنولوجية قد خضعت لتطور تاريخي، حيث ظهر مصطلح التكنولوجيا الحيوية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1917، ولم يلج إلى اللسان الفرنسي إلا عام 1978، بفضل تقرير يدور موضوعه حول (علوم الحياة والمجتمع)، والذي تمت صياغته من طرف أحد رواد الكيمياء الحيوية والخلوية الفرنسي "فرانسوا غرو" François Gros (1925-؟) بمعية الفيزيولوجي الفرنسي "فرانسوا جاكوب" François Jacob (1920-2013)، و"بيير روبييه". (دوبرو، 2007، صفحة 220).

كما ينسب مصطلح البيوتكنولوجيا إلى "روبرت بيد" robert bud الذي يعد أول من استعملها في مجال التخمير الصناعي. (larouse, 2013, p. 126) وقد ظهر في بداية القرن 20، وكان يطلق على الممارسات البيولوجية ليزداد اتساع مجالها فيما بعد ليشمل جميع الأنواع الحية من نبات، حيوان وإنسان، ولهذا يمكن ربط جذوره التاريخية بنظرية التطور، وما تلاها من تطورات علمية، وبالتحديد اكتشاف قوانين الوراثة من طرف العالم النمساوي "غريغوري جوهان مندل" (Johann Gregor Mendel) (1822-1884) الذي استطاع بفضل دراساته التجريبية

أن يكشف الثغرة الموجودة في نظرية التطور، وفهم آلية التوريث، ليضع بذلك الأسس الأولى لعلم الوراثة.

وبداية من القرن العشرين (ق20) عرفت البيولوجيا تأسيس عدة تخصصات وفروع جديدة، وإنجازات جد متقدمة في علم الوراثة كإكتشاف الحمض الريبي النووي في الجهاز الوراثي، وتقنية الاستنساخ - أي إنتاج كائن حي مطابق للأصل، عن طريق معالجة الخلية وإجبارها عن نسخ مادتها الوراثية بهدف الحصول على عدة خلايا مطابقة للأصل - التي تطورت وامتدت إلى الحيوان وحتى الإنسان، حيث فتحت هذه التقنية أفقا اقتصادية وطبية جد معتبرة، ليحقق التجريب في هذا المجال غايات علاجية وتكاثرية، كاستنساخ الأجنة البشرية من طرف الأمريكي "جيري هول" و"روبرت ستيلمان"، مما أحدث هزة فكرية وحركة اجتماعية رافضة. (الدمرداش، 1997، الصفحات 16-17)

من خلال ما سبق نجد أنه رغم قدم الدراسات الحيوية التقنية، إلا أن العصر الحديث كشف لنا عن ظهور طرق علمية جديدة كانت بمثابة الداعم الأساسي لنهوض الدراسات البيولوجية، حيث برزت النظرة الآلية للطبيعة والحياة، مما سمح لها بالكشف عن شيفرات جديدة لمختلف مستويات الحياة، وظهور تقنيات حيوية بيوطبية جد متطورة، كالهندسة الوراثية والإستنساخ... إلخ. وهو ما يكشف على مدى مثابرة العلماء في محاولة فك لغز الحي من أجل التحكم في ظواهره الحيوية التي لم تكن لتحقيق لولا إدخال التقنية كعامل أساسي في تعميق الفهم الحيوي، مما زاد من تطورها فأصبحت هي العلم السوي الذي سيطر على العقول والساحة الفكرية.

ما يتجلى لنا أن العالم في ظل هذا التطور البيوتكنولوجي أصبح يعيش أزمة وجودية، حيث تغيرت النظرة للإنسان والحياة نتيجة طغيان النزعة المادية، فلم يعد الإنسان هو محور الكون، بقدر ما أصبح وسيلة لغايات علمية براغماتية، فأصبح مهدد في وجوده وهويته ومصيره، أفقده حقيقته ووجوده وجرده من إنسانيته، وهذا ما استدعى إعادة النظر في هذه البحوث البيوتكنولوجية، مع ضرورة مراقبة الفعل الإنساني للحد من انعكاساته السلبية خصوصا على الهوية الإنسانية، وهذا يعني أن الدراسات الإبيستمولوجية كشفت لنا عن وجود شذوذ على مستوى هذه الدراسات البيوتكنولوجية، من حيث طبيعة دراساتنا ومنهجها وغاياتها، هو ما أدى إلى

إيقاظ العقل الفلسفي من سباته، مما أعاد هذه الدراسات البيولوجية إلى حاضرة المباحث الفلسفية، وهذا ما نلمسه من خلال الدراسات الابستمولوجية المعاصرة التي نجدها عند العديد من الفلاسفة، الذين حاولوا إعادة النظر في مثل هذه البحوث البيوتكنولوجية لما لها من أثر على الإنسان وهويته، والسؤال المطروح: ما هي انعكاسات أو أثر البحوث البيوتكنولوجية على الهوية الإنسانية؟

ثانيا . أثر التقنية الحيوية على الهوية الإنسانية: إن الحديث عن أثر الدراسات البيوتكنولوجية والتطور الحاصل فيها الذي مس جميع المجالات، يدفعنا إلى محاولة الإشارة إلى أثرها على الإنسان وتحديد هويته البيولوجية والنفسية الاجتماعية، إلا أن هذا لا يستقيم إلا بمعرفة ماهية الهوية، فيا ترى ما تعريف الهوية؟

أ . في تعريف الهوية *Identité*:

تعد الهوية ظاهرة كونية وموضوعا فلسفيا أصيلا، وتعرف من الناحية اللغوية: كما ورد عند الجرجاني هي ما يكون الشيء هو هو وليس غيره، وهو قائم على التطابق والاتساق من الناحية المنطقية، وتتعلق الهوية بالشخصية والعدد والكيف، أي أنها صورة أو بطاقة لتعرف الآخر على الذات. (حسنين، 2012، صفحة 11). كما ورد في لسان العرب (لابن منظور) أن الهوية هي تصغير لكلمة هوة، والهوية هي الذات أو ما يثبت بها وجود الشخص، ولها مرادفات منها الذاتية أو الشخصية. (منظور، 2005، صفحة 793).

وتعتبر مسألة الهوية ظاهرة تاريخية، وثقافية، أنثروبولوجية، بيولوجية، أو عينة نفسية تكشف مدى انحصار مساحة الوعي لدينا، وهي ليست كلمة عربية بل مترجمة، فهي في الفرنسية *identité*، وفي الإنجليزية *identity* وقد استخدمت لفظة الهوية عند الفلاسفة القدامى إشارة إلى الضمير هو، كما استعملت عند العرب من الكندي إلى ابن رشد للدلالة على معنى الذات، أما في الفلسفة الحديثة فيتضح معنى الهوية في الذات . أنا أفكر، للدلالة على الوجود. (المسكيني، 2001، الصفحات 7-8).

وتقوم الهوية على الحرية لأنها إحساس بالذات الحرة، والحرية قائمة على الهوية، لأنها تعبير عنها، وبالتالي فهي ليست شيئا معطى بل هي شيء يخلق، أي أنها عبارة عن إمكانية قد توجد

وقد لا توجد، فإن وجدت فذلك تأكيد لوجود الذات، وإن غابت قد تتحول الهوية إلى اغتراب تظهر من خلال انقسام الذات على نفسها، وتتحوّل من ذات قادرة حرة إلى خاضعة كلياً للظروف الخارجية نتيجة الإحباط الذي قد يصيب الفرد. (المسكيني، 2001، الصفحات 23-24). ومنه تعتبر الهوية مشكلة نفسية وتجربة شعورية، لأن الإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها. لأنه حسب إيكس ميكشيلي Alex Mucchielli لا يمكن لنا تعريف هوية كائن اجتماعي معين من غير العودة إلى الشعور بالهوية الذي يوجد ويشكل طبيعة وعي الكائنات العاقلة.

وتتأسس الهوية من مجموعة من المعايير التي تسمح بتعريف موضوع أو شعور داخلي ما، وينطوي الشعور بالهوية على مجموعة من المشاعر المختلفة بالشعور بالوحدة والتكامل والانتماء والقيمة والاستقلال والشعور بالثقة المبني على أساس من إرادة الوجود.

وللهوية مجموعة من الصفات تعتبر بمثابة مرجعية يصعب ضبطها بدقة، ويرجع ذلك لتمايزها وتغيرها، كالعمر والجنس، والوسط العائلي والثقافي والمدرسي، الاتجاهات والعادات العلاقات العاطفية.... إلخ. ورغم ذلك فإن تحديد هوية مجتمع أو فرد يقتضي العودة إلى مجموعة من العناصر التي يمكن من خلالها ضبط مدى تمايز الفرد والمجتمع عن غيره، ولهذا يطلق مصطلح الهوية على نسق المعايير - كالهوية المادية: كالمورفولوجيا، الملكية، والهوية الخاصة: كالأصول والماضي، الولادة، التاريخ الخاص، الوضعية الحالية: كالاسم ومكانة الفرد، والنظم الاجتماعية والسلوك الخاص، والقدرات، وكذا الهوية الاجتماعية: مثل صورة الفرد عند الآخر، والانتماءات والنشاطات- التي يعرف بها الفرد وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع، الثقافة. (ميكشيلي، 1993، صفحة 7).

كما يمكن الإشارة إلى الهوية الوراثية: *Identité génétique* هي التي تعكس حقيقة الشخص من الناحية البيولوجية العضوية، ويمكن الكشف عنها بواسطة الطرق العملية البيوتقنية، وهذا ما نلمسه على مستوى الطب الشرعي مثلاً، لمعرفة حقيقة الجثة باستخدام الحمض النووي (DNA)، أو بواسطة البصمة - بصمة الحمض النووي - التي من خلالها نتعرف على هوية الفرد بواسطة المقارنة، أي مقارنة مقاطع من الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين، وهذا ما عكسته الدراسات البيوتكنولوجية وحاولت مسه وتغييره، أي التغيير في الهوية الوراثية كحقيقة أصيلة وأصلية في الفرد والإنسانية. (Pascal bolch, 2007, p. 5).

وفي الأخير نجد أن مفهوم الهوية يعد من المفاهيم المركزية التي تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولاسيما في مجال علم البيولوجيا والعلوم الإنسانية ذات الطابع الاجتماعي، كما يعد من أكثر المفاهيم تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية المعاشة. ولهذا لا تعد الهوية كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، لأنها حقيقة تولد وتنمو وتتكون، وتطالها أزمات وجودية.

ب. أثر التقنية الحيوية على الهوية الإنسانية عند برغسون:

يؤكد الفيلسوف الفرنسي المعاصر ألان رينو Alain Renaut (1948-؟) أن الثورة البيوتكنولوجية اليوم قد غيرت الكثير من النواميس والأسس والقيم، حيث أثرت على الطبيعة بما فيها الإنسان، فأدت نتائجها الجارفة إلى انغلاق الإنسان على ذاته وطغيان النزعة الفردية الأنانية وحب التملك، وهو ما تجلى في التكنولوجيات الجديدة كالتجارة بالأعضاء، والبنوك المنوية ومافيا الأجنة، الأمر الذي أدى إلى السيطرة على الفرد واستغلاله من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما انعكس سلبا على وجوده كذات وقضى على فردانيته الحق وأسس لأزمة إنسانية حقيقية تظهر في نمذجة الإنسان واختزاله وتتميط وعيه، وطمس تاريخه، مادام همه الوحيد هو إشباع رغباته وغرائزه دون التفكير في الماضي والمستقبل، حيث يقول: " لم يعد الفرد سوى تسلسل للملذات بدون أمس أو غد، لم تعد حياته حياة شخص ما، أي تاريخ حياة، لكنه رجوع بيولوجي أبدا للحاجات ولكيفية إشباعها". (Renaut, 1995, p. 40)

ومنه فإن لتطور البيوتكنولوجيا عواقب كثيرة، لأنها ستقدم للمجتمعات تقنيات جديدة للتحكم في سلوك مواطنيها، وستغير فهمنا لشخصية الفرد وهويته، وتؤثر في معدل التقدم الفكري والمادي والسياسي، ليصبح الإنسان في ظل هذه التطورات مجرد آلة بدون روح، يعيش اغترابا عن ذاته وعن عالمه. وهذا ما عبر عنه "هنري برغسون" في نوعه الوجودية الروحانية، حيث أعطى قيمة وأهمية لما هو ذاتي شعوري واعتبره هو أساس الكشف عن خفايا الذات وأسرارها في حركيتها وديمومتها، حيث يقول: " ليس ثمة ريب في أن وجودنا الذاتي هو الوجود الذي نراه أكيدا إلى أكبر حد ممكن، والذي نعرفه على أتم وجه، وذلك لأنه من الممكن أن نحكم على جميع الأشياء الأخرى التي نكونها لأنفسنا بأنها معان خارجية وسطحية، وحين ندرك أنفسنا إدراكا داخليا وعميقا". (برغسون، 1984، صفحة 10).

وأكد "برغسون" Henri Bergson (1859-1941) في ذات السياق أن التضخم غير المتزن للآلية المادية على حساب الروح هو الذي أحدث تأزم واضطراب العالم الإنساني الذي أضحي يعيش اغتراباً روحياً، ومعاناة وجودية سواء ارتبط الأمر بالفرد أو المجتمع، حيث يقول في هذا السياق: "لكن روحه (الإنسان)، وأقول ذلك بالنسبة للروح الفردية والروح الاجتماعية، هل اكتسبت في نفس الوقت الروح الإضافية اللازمة لقيادة هذا الجسم الذي عزم فجأة وبصورة مذهلة. (Bergson H. , 1957, p. 395) وفي هذا إشارة إلى ما يجب أن يمتلكه الإنسان من أجل قيادة جسمه ومجتمعه، والذي يكون بواسطة الروح الإضافية. (Pascal bolch, 2007)

وهذا يعني أن ما صنعه الإنسان من تقنيات في مختلف المجالات لا تزال في حاجة إلى تطوير وتقويم، لأن من يصنع أو يخترع بوعيه آلة يمكن أن يصنع أحسن منها، لهذا نقول أن الإنسان الواعي هو أساس التطور إذا هو أدرك قيمته وحقيقته وجوده، وهو ما يمكن أن نلمسه عند "برغسون" في دعوته للاهتمام بالحياة الداخلية الروحانية من أجل الوقوف على جوهرها، لأنها أساس أي حركة حيوية أو تطور، حيث يقول في هذا السياق: "الفيلسوف المتمرس بالمراقبة الذاتية الداخلية، يجب عليه أن ينزل إلى داخل ذاته ثم يعود إلى السطح متتبعا الحركة التدريجية التي تمتد بها الوعي وينتشر ويتهيأ لكي ينمو في الفضاء". (برغسون، الطاقة الروحية، 1963، صفحة 36).

ومن هنا نجد بأن "برغسون" رغم ما دعا إليه من تطوير للعلم والتقنية، وهو ما يوافق التطورات العلمية الحاصلة في عصره، إلا أنه وجه نقداً إلى طرق استعمالها وتطبيقاتها، لأنها لا تتماشى مع الحياة الإنسانية والغاية التي وجدت من أجلها، لأنها خلفت كوارث مست الهوية الفردية والاجتماعية، وهو ما يتجلى لنا في النماذج البيوتقنية الجديدة وتحديداً فيما يسمى اليوم مافيا تجارة الأجنة، والاستنساخ والهندسة الوراثية... إلخ. وبالتالي فالحضارة التكنولوجية لا تساعد الفرد على تحرره وانفتاحه، بل تؤدي إلى استلابه وقتل القدرات الذاتية وتحطيمها، وهو ما نجده تحديداً فيما أقره الفرنسي "هنري برغسون" من خلال قوله: "تمر مثل العالم بأسره بأزمة خطيرة، إذ أن عهد الآلات الذي بدأنا في اقتحامه يمكن أن يتحول فيصير عهد الصراعات الحادة، وقد نقع في الهوة إن نحن أهملنا أنفسنا". (Bergson H. , 1957, p. 146) وهذا تحذير صريح من الخطر الذي أصبح العالم يمر به جراء التطور العلمي البيوتكنولوجي، إلا أن تقادي الخطر

مرهون بمراجعة الإنسان ذاته والاهتمام بها من أجل الوعي بها الذي يقوده إلى الوعي بما يحيط به والسيطرة عليه.

وفي ذات السياق نجد أن البرغسونية تلح على ضرورة التعامل مع الفرد وفق القيم الروحانية التي تعكس جوهره هو ما يجعلهم قادرين على اتخاذ قراراتهم بكل حرية وعلى فهم ذاتهم، مما يجعلهم قادرين على تأسيس علاقات إجتماعية مبنية على التواصل والتفاهم فيما بينهم، حيث يقول "برغسون": "من الروح كلها ينبجس القرار الحر". (Bergson H. .., 1993, p. 125) وهذا يعني أن تغييب الجانب الروحاني هو ما يقضي على الحرية ويقضي بدوره على الذات الإنسانية ذاتها، لأنها أساس الفعل الحر ومنبعه.

ويمكن أن نلمس هذه النظرة في إطار الفلسفة البرغسونية وبالتحديد عند حديثه عن الحرية التي ربطها ربطاً أساسياً بالوجود والقيم، فيرى أنها من صميم الذات وأساس وجودها الواعي ومعياراً ضرورياً للفصل بين ما هو مادي وروحاني فيها، لأن الذات الحقة عند برغسون هي التي تصنع أو تخلق نفسها في كل لحظة من جديد، وبالتالي لا تعتبر مجرد موضوع أي مكاني قابل للموضوعة والدراسات الاختزالية، لأن هذا يقضي على جوهرها الزماني الديمومي المتصل والحر، الذي يعبر عن حقيقة الحياة لأن الحياة زمنية، وهو ما يمكن أن نلمسه في قول "غاستون باشلار": "إن وحدة النفس لم تعد سوى وحدة الزمن، ولو يعد اتصال الجوهر المفكر سوى اتصال الجوهر الزمني، إن الزمن حي والحياة زمنية". (باشلار، 1992، صفحة 15).

وهذه النظرة الإستشرافية البرغسونية المتصلة الحلقات، والتي تأبى الجمود والركود وتؤسس لكل ما هو جديد، حيث يتجلى في طياتها خلق الذات لذاتها، مما يجعل الشخص المبرمج وراثياً فاقداً لماضيه المصطنع، وتجعله يعيش زمناً سكونياً ذون مستقبلي، وهو ما جعل "برغسون" يشير إليه في ضبط حقيقة الذات الإنسانية التي تعيش أو تحيا الزمان بتفاصيله وتغيراته: "أن كل شعور هو استباق للمستقبل، أنظروا إلى اتجاه فكركم في أية لحظة، إنه يهتم بما هو موجود، ولكنه يهتم في سبيل ما سيكون بالدرجة الأولى". (برغسون، الطاقة الروحية، 1963، صفحة 07).

وفي الأخير نجد أن الأزمة التي يعيشها العالم اليوم ناتجة حتما على النظرة الآلية التي تفصل وتهمل كليا الزمن الحقيقي المرتبط بالذات والواقع الفعلي، وهذا ما يجعل من الذات الإنسانية ذات فاقدة للحياة الحقيقية القائمة النظرة الزمانية الروحية الوجدانية التي لا سبيل للعقل لإدراك كنهها وتغيرها، ومنه فإن النظرة العلمية التجريبية التي كرستها العقلية الحديثة هي التي تسعى إلى تطهير الفكر من الطابع الميتافيزيقي الفلسفي الروحاني الإنساني، وبالتالي تأسيس صورة رياضية صارمة وغريبة على الواقع عموما والإنسان على وجه الخصوص، إلا أن هذه الصورة إنما هي استجابة إلى رغبة مناقضة للطبيعة ومنكرة لخصوصيات الإنسان والحياة، وهو ما حاول برغسون أن يندد بخطورته على هوية الفرد والمجتمع على حد سواء.

ومنه فإن الحرية البرغسونية ما هي إلا نتاج إرادة وقوة داخلية تجعل من الفرد قادرا على تجاوز كل الإكراهات الخارجية، وهو ما يمكنه من خلال التجارب التي عايشها من إعادة النظر في الواقع المزمري المادي الذي أفرزته البيوتكنولوجيا من أجل إصلاحه، وهذا ما يجعل من الفرد قادرا على إثبات وجوده من خلال فاعليته وقدرته وإبداعاته الصادرة عن طاقة داخلية شعورية، فيتمكن الفرد بحريته من الوقوف على القيم الإيجابية التي تعيد التوازن له وللمجتمع بعيدا عن كل نظرة غريزية مادية وارتكازا على مبادئ روحانية إنسانية.

2. الوجود والهوية في ظل الثورة البيوتكنولوجية عند هيدجر:

يقر "هيدجر" أن العلم البيوتكنولوجي قد وضع الإنسان المعاصر في وضعية محرجة ومعقدة، وجعله غير واعي حتى بوجوده وغايته وماهيته، مما يستدعي إعادة النظر في هذا العلم البيوتقني من أجل إصلاحه وترشيده وإرجاع الإنسان إلى تياره ومكانته الحقيقية التي تجعله يدرك وجوده وغاية معارفه العقلية، لأنه كما يقول "هانس جوناكس": "لا يتعلق الأمر بما تعلمنا إياه العلوم الطبيعية عن العالم، وبما يتعلق أيضا بأننا كائنات جسدية، بل يتعلق الأمر بالوعي بالوجود في العالم، بالدازاين، بالرعب،... بالكائن الأصيل و اللاأصيل" (Jonas, 1994, p. 48) وبالتالي فالمعضلة الكبرى التي تعاني منها الإنسانية في ظل التطور البيوتقني هي معضلة وجودية محضة، لأننا في عصر أصبح الإنسان في ظله فاقد لهويته وحريته غير قادر على تقرير مصيره والنهوض من أجل تطوير ذاته ومجتمعه.

وهو نفس ما نلمسه عند "مارتن هيدجر" في إقراره أن سيطرة التقنية قد جعلت الإنسان يبتعد عن ذاته، ليتحول من سيد إلى مسود أي عبدا لها، مما يجعله فاقد لهويته وماهيته التي تجعله كائنا وإعيا قادرا على تجاوز كل المشكلات التي يمكن أن تواجهه، لأن العقل وما اخترعه من تقنيات أصبح هو الحاجز أمام آماله وإنجازاته، ليكون الإنسان الذي كان يتطلع إلى التحرر من هذه الزاوية يشعر بالغربة، لينغلق في ظل ما هو تقني لينتج عن ذلك فقدانه لمعنى الحضور أي لوجوده الواعي الذي سيغيب أو غيب من كل ما هو حداثي وجديد.

وهو نفس ما حاول "جوناس هانس" أن يوضحه من خلال سؤاله عن حقيقة وجوهر الحياة الإنسانية، لأنه رأي أنها عبارة عن صيرورة أو تطور نرى من خلالها هويتنا العميقة والتي تخلق بطريقة تصاعدية، وأن الهدف من هذا التطور المستمر هو الوصول إلى ذواتنا، إلا أن هذا لا يتحقق عنده إلا إذا ارتبط بثلاث أبعاد وجودية غيبية في إطار ما هو تقني أو بيوتكنولوجي، وتتجلى هذه الأبعاد أولا: في البعد المشروع: projet : الذي يتناول بنية حياة الفرد وازدهاره وتطوره، ويحتوي على أفكار الإرادة، الهدف، التوجه، الحركة، الروح.

وثانيا: بعد المشاركة: partage ويحتوي على أفكار التبادل، التواصل، الاتصال، التشارك، المشاركة، وهذه الأفكار تحت شعار لنكن معا être ensemble يتناول هذا البعد العلاقة مع الآخر (المجتمع) والإنسانية، وأخيرا: بعد الهوية كهدف الأسمى، ويحتوي على أفكار: كن ذاتك (être soi même)، حيث يتناول هذا البعد وحدة الشخصية واستمرارها ودوامها والتعبير عنها. (Gilles Voyer, 2010, pp. 20-21)

ومن هنا يتجلى لنا عند "هيدجر" أن الأزمة الحقة التي أصبح يعيشها الإنسان اليوم هي أزمة هوية وتغييب الذات والفكر الفلسفي الحكيم القادر على البث في المستجدات، ووضع حلول عقلانية تصور لنا الطريقة الحكيمة التي نستطيع من خلالها التعامل مع هذا التطور العلمي دون أن تجعلنا مجرد أدوات أو أشباه آلات دون معنى أو ماهية، ومعنى هذا أن عودة الحياة الحقة للإنسان وتحقيق وجوده وهويته المفقودة والمنصهرة في ظل هذا الزخم التقني مرتبط بمحاولة تحديد رؤية حكيمة تتعلق بغايته من وجوده ومن استخداماته العلمية، وهذا الأمر لا يمكن أن يضبط إلا بوجود ركيزة أساسية من طبيعة روحانية ميتافيزيقية يستند إليها الإنسان في عملية تفكيره بغية تحقيق الأمن والاطمئنان، لأن سر التحكم في التكنولوجيا يكمن في التعرف عن سرها

وماهية وجودها، وهذا لا يكون إلا بالانفتاح عليها تلبية لنداء الوجود، ويمكن تحصيل هذا عن طريق التفكير التأملي الذي نضع من خلاله التقنيات اللازمة لمواجهة جبروت العلم و انجازاته، لتحقيق بذلك قفزة فكرية نتجاوز بها الفكر المادي والنظرة الآلية للإنسان لنجعل منه جوهر الوجود وصانعه. حيث يقول: " أن الفكر ينجز علاقة الكينونة بماهية الإنسان". (هيدجر، 2001، صفحة 47)

ونخلص إلى أن الفلسفة هي التي تضعنا وجها لوجه أمام وجودنا الحقيقي والجوهري، لأن التفكير التأملي الذي غيبيته النزعات المادية العلمية هو الذي يكشف لنا حقيقة الإنسان وعلاقته بذاته وبالعالم، ويدفعه إلى مراجعة ذاته ووجوده. الأصلي والأصيل الذي تظهر من خلاله معنى الذات الإنسانية بشموليتها، لتكون الفلسفة معرفة شاملة بكل نواحي الوجود الإنساني، وهدفها الأساسي هو أن تكتشف وسائل تحقيق المعنى، أي أنها وسيلة جوهرية تعمل على إعادة النظر فيما هو علمي وإيديولوجي، لهدف التخفيف من حدته خدمة للإنسان والإنسانية، ومن هنا يمكن القول أن الوجود الإنساني الحق يتجلى من خلال قدرة الإنسان على إخضاع كل ما هو بيوتكنولوجي لصالحه.

3. أثر الثورة البيوتكنولوجية على الهوية الإنسانية عند هابرماس:

يؤكد هابرماس أن للبرمجة الوراثية علاقة بوجود الذات ووعيها، حيث أن مشروع الجينوم البشري الذي سعت إليه بعض الدول قد أثر سلبا على تحويل وتغيير في الطبيعة الإنسانية، ويتجلى التأثير السلبي للبرمجة الوراثية على الوجود الإنساني على حد تعبير "أندرياس كولمان" في انعكاساتها على المشاعر الأخلاقية، لأن الفرد الخاضع لها مدين بوجوده إليها، مما سيؤثر على هويته وعلاقته بذاته، لأن ذلك التدخل الوراثي سيؤدي إلى تحول على مستوى الوعي، وخاصة إذا عرف أنه قد خضع إلى عملية تصنيع وتعديل على مستوى جهازه الوراثي، ففي هذه الحالة: " فمن المحتمل من خلال الإدراك الموضع الحاصل له أن تتغلب فكرة كونه مصنعا على فكرة كونه جسدا حيا طبيعيا". (هابرماس، 2006، صفحة 67).

ومنه فإن التدخل الوراثي على الإنسان سيؤدي به إلى فقدان وجوده وارتباطه الحميم بالواقع، كما أن هذه التقنية ستسلبه الطابع الروحي والتأملي الخالص، كما تؤدي إلى إحداث صراع داخلي

عند الشخص، عكس الشخص الذي ينمو نموا طبيعيا حرا دون تدخل وراثي، حيث يكتسب هويته ووعيه بذاته من خلال التجارب التي يمر بها، حيث يقول "هابرماس" في هذا الصدد: "إن نمط التجربة الأولى هو نمط أن يكون جسدا حيا، وانطلاقا من ذلك تؤكد ذاتية الشخص الإنساني على نفسها كذاتية حية". (هابرماس، 2006، صفحة 64) وهذا يعني أن الخضوع للبرمجة والتدخل الوراثي سيجعل ذاته وحياته المعيشية غير مستقلة أو مفهومة، ومن شأنه أن يجعل من الشخص المبرمج: "غير قادر على التمييز بين ما هو طبيعي فيه وما هو مصنوع، ويكون غير قادر على استدراج نتائج على قدرته على أن يعيش حياة مستقلة، وعلى الفهم الأخلاقي الذي يكونه على نفسه". (هابرماس، 2006، الصفحات 65-66).

إضافة إلى ذلك أن التلاعب التقني بالمورثات الهادفة إلى غايات علمية براغماتية من شأنه أن يغير موازين وقوانين الطبيعة، مما سيقضي على الفوارق بين ما هو طبيعي ذاتي وما هو موضوعي مصطنع، والتي يصبح فيها الإنسان كآلة التي تصنع وفق شروط يمكن التنبؤ بها وإحداثها، مما يجعل الفرد في حالة وجود زمني سابقة لوجوده (مراقب لنفسه) تبعا لشروط تقنية، هذا ما يجعل منه يعيش اغترابا ذاتيا، حيث يقول "جاك أول" في تصويره لحقيقة العلم الذي أصبح شبعا في وجه الإنسان ووجوده الواعي المسلوب وطموحاته والإنسانية المهمشة، نظرا لما خلقه من عبث وجودي واغتراب ذاتي، حيث يقول: "ونحن لا نعرف ماذا نفعل بهذه التقنيات المدهشة الفعالة، فنحن نخلق ما لا نعلمه". (أول، 2004، صفحة 250) وتفسيرا لذلك نجد أن البيوتكنولوجيا قد تغير من شروط النمو المرسومة طبيعيا، والتي من خلالها نفهم أنفسنا كثيرا بوصفنا صانعوا الحياة الشخصية، وكأعضاء متساوين في الحق بالجماعة الأخلاقية، وإلا فإن هذا التلاعب الجيني الجسدي سيؤدي إلى أحداث نمط جديد من العلاقات اللامتوازية بشكل فريد بين الأشخاص. (هابرماس، 2006، صفحة 55)

وفي ذات السياق فإن اختيار الصفات الوراثية المبرمجة دون الأخذ بعين الاعتبار رغبة أو قرار الابن ومستقبله، هو بمثابة تعامل مادي لا إنساني، لأن اختيارهم الأناني سينعكس على العلاقة التواصلية للشخص التي لها تأثير على كيانه ووجوده. حيث يقول: "في الإطار الذي يعيشه الشخص المعني تتحول النوايا وتظهر كمركب طبيعي في التفاعلات، ولذلك فهي تتخلص من شروط التبادل التي تحدد التقاهم المتبادل"، (هابرماس، 2006، صفحة 64) ومن هنا نجد

أن صورة الإنسان أصبحت في ظل التطور البيوتكنولوجي مشوهة نتيجة ما جنت يده من أعمال تقنية، مما جعله يعاني من أزمات وجودية، مما يجعل من العلم وتطبيقاته مفلسا غير قادر على حل مشاكل الإنسان النفسية والسوسولوجية.

وفي سياق ذي صلة نجد أن ما أشار إليه "هابرماس" انطلاقا من السيطرة البيوتكنولوجية على الحياة الإنسانية وتحديدًا في انعكاساتها على شبكة العلاقات الاجتماعية وتغيير مواقعها وطبيعتها، ويظهر ذلك في صعوبة وعدم قدرة الفرد على فهم ذاته، والتعبير عنها في إطار علاقته التواصلية مع الآخر، حيث يقول: "ولهذا السبب نشعر بالقلق إزاء السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان الفعل من هذه الطبيعة سيؤثر في قدرتنا على أن نكون أنفسنا وفي علاقتنا بالآخرين". (هابرماس، 2006، صفحة 89) ومن هنا فإن الطرق الأداتية المنصبة على الحياة يجب أن تؤسس لحياة إنسانية قائمة على معايير أخلاقية ضابطة وموجهة تأخذ بعين الاعتبار مصلحة الإنسانية والنوع البشري بأسره، وتمكن الفرد من أن يفهم نفسه بمعنية الآخر (مبدأ المشاركة)، وهو ما يتجلى في قول فوكوياما: "بأن الفرد البشري لا يمكن إخضاعه ليصبح مجرد وسيلة أو آلة... لأن له قيمة بذاته يستطيع بذكائه وبفردته أن يشكل علاقة مشاركة وتضامن مع أنداده... وبفضل روحه الدينية يمتلك الشخص الكامل مثل هذه الكرامة حتى في جسده". (فوكوياما، 2006، صفحة 190)

ولهذا الغرض أكد "هابرماس" أن من أهم غايات الطب أسمى العلاجية هي ضمان حياة صحية وسليمة، والتي لا تتحقق إلا إذا كانت القاعدة التي يقوم عليها الطب قاعدة قيمية إنسانية تحترم حرية الأفراد، وتقوم على أساس المشاركة والموافقة بين الطرفين الطبيب والمريض، أي وجود حقل النشاط التواصلية وغياب الأنانية، وهذه دعوة واضحة إلى تجاوز الأخلاق الأداتية، مطالبًا في ذلك بأخلاق تواصلية، غايتها ضبط وتنظيم الحياة البشرية، وإنقاذها من كبال وآلية العقل الأداتي الاستراتيجي البراغماتي، مع ضرورة تأسيسها على الحوار والنقاش المتوازن بين الفرد والآخر بهدف الوصول إلى الحياة الصحية والسوية. (هابرماس، 2006، صفحة 34)

وتماشيا مع ما سبق نجد أن المولود الخاضع للتدخل الوراثي لا يمكن أن تكون له قدرة ذاتية على الخلق والتجديد، لأنه في هذه الحالة يكون تابعا لبرنامج وراثي مصطنع غيبت من خلاله الفاعلية الذاتية القائمة على الوعي، حيث يقول "هابرماس": "لا يمكن للشخص المبرمج أن

يتفهم نية المبرمج الحاضرة في كل أجزاء الجينوم المعدل، كما لو كان ذلك أمراً طبيعياً، كما لو كان واقعا محايثاً يحد من حرية تصرفه". (هابرماس، 2006، صفحة 75) وتفسيرا لذلك نجد أن التلاعب الجيني، سيؤدي إلى التلاعب بسيرة الشخص وهويته، فيجعله فردا ضائعا لا يعي حقيقة وجوده، لأن ماضيه مبرمج ومستقبله مصطنع، والزمن عنده واحد ويتكرر وفق شروط مرسومة جينيا، وهو ما لا يمكن قبوله من الناحية القيمية والوجودية، لأننا لا يمكن أن نفهم الفعل الحر إلا في إطاره الزماني المتجدد والمتصل الحلقات. ومنه فإن التدخل في جينوم الخلايا الجذعية المخصصة، لا يمكن قبوله لأن الأشخاص المبرمجين لا يستطيعون اعتبار أنفسهم صانعي سيرتهم الخاصة، كما لا يمكن مقارنة الأجيال التي سبقتهم وتحديدا في قضية المساواة من حيث الولادة. (هابرماس، 2006، الصفحات 97-98)

وبالفعل فإن التدخلات الوراثية يجب أن تعيد النظر في المجال المتروك للشخص الممارس عليه، حتى يكون قادرا على استعمال حريته، ومنه قدرته على تشكيل حياته الأخلاقية الشخصية والمستقلة، وهذا لن يكون إلا انطلاقا من قبله وتبعيته لقانون أخلاقي يضمن له الحقوق والقدرة على ممارستها.

ويؤكد هابرماس في قضية أطفال الأنابيب أنه رغم اعتراف المجتمع بالأولاد المعدلين وراثيا أو المستنسخين بوصفهم شركاء في التعامل أحرارا متساوين، إلا أن هذا الأمر له تأثير على حفظ قيمة الشخص الذاتية، وكذا تؤدي إلى إجحاف يمس الفهم الأخلاقي للذات، لأن هذه التقنيات الوراثية تعمل على حرمان الشخص من إمكانيات الاختيار، وفي تشكيل هويته المستقبلية بطريقة فردية ومستقلة، ويجعله يشعر بأنه سجين أنه السطحي، مما ينتج عنه معاناة وانقسام هويته وشعوره بالتعرب، حيث يقول في هذا السياق: "فالشخص المبرمج يجد نفسه هكذا، وقد حرم من الوعي بامتلاك شروط بيوغرافية أولية طبيعية". (هابرماس، 2006، صفحة 100) ومنه فإن أي برمجة أو تلاعب وراثي في جينات الأفراد، هو في حد ذاته مس بحرية ووجود الفرد والقضاء عليه وعلى هويته وأصله البيولوجي، لأنه بقدر تقدم الأجيال تزول السلالة العائلية، كما أن البرمجة الوراثية تؤدي إلى خلق عجزا شاملا على مستوى الذات الإنسانية، مما يخلق وجود محدودية وتبعية على مستوى حياة الفرد من جميع الجوانب حتى الوراثية منها، وهذا لا يمكن أن يعطي حقا متساويا للفرد في أن يحيا حياة مستقلة، حيث يقول "هابرماس": "إن الذي

يبتكر البرنامج الوراثي يكون قد عرض نفسه فيما يخص شخص في المستقبل للاتهام باغتصاب مسؤولية يجب أن تكون خاصة بهذا الشخص بالذات، ولا يكون معرضاً للأذى بمقدار وعيه أن يكون مستقلاً". (هابرماس، 2006، صفحة 104).

وهذا ما يؤدي إلى ظهور أضراراً سوسولوجية، تظهر مبدئياً من الأسس التي ينطلق منها الآباء في اختيار الصفات الوراثية، التي قد تكون شاذة أو إيديولوجية لا تتماشى ورغبات الجيل الجديد، لأنها ليست من اختياره وغير نابعة من شعوره، أي أنها مفروضة عليه فرضاً، لتصبح فيما بعد برنامجاً مورثاً لكل سلالتها، حيث يقول "هابرماس": "إذا تدخل كائن بشري تبعاً لما يفضل في دمج الصبغيات القرابية، ودون افتراض وجود إجماع حتى لو كان بطريقة لا حديثة مع الآخر المعني، فإن رؤية الأمور بهذا الشكل تقودني إلى السؤال: ألا يدمر الإنسان الأول تبعاً لإرادته الطبية إنساناً آخر الحريات المتساوية الموجودة بين المتساوين بالولادة بهدف ضمان الفرق بينهم؟". (هابرماس، 2006، صفحة 139).

ومن أهم الحلول المقترحة لتفادي مشكلة فرض الصفات الوراثية يؤكد "فوكوياما" ضرورة اللجوء إلى استخدام الكروموزومات الاصطناعية التي يمكن إضافتها إلى الجهاز الوراثي الطبيعي للطفل، لكن لا يجب فتحها إلا بعد نضج الطفل وموافقته، ومن القضايا الواضحة لقضية الاختيار هي قضية تحويل الجنس، لأن الشخص إذا لم تحدد هويته الجنسية لا يمكن للآباء أن يتخذوا موقفاً في ذلك، لأن حياة الطفل فيما بعد قد تنقلب إلى كارثة جنسية. (فوكوياما، 2006، صفحة 147).

ويمكن الإشارة إلى أن هناك آراء معاصرة كثيرة حول مسألة الهوية، وتحديد ما نجده عند الفيلسوف ديفيد سبارتي *daVIDE sparti*، الذي أرجع الهوية العابرة إلى الزمن، أي هي التي تجعل من الفرد قادراً على الحفاظ على هويته في الزمن - الحاضر، والمستقبل - وهذا يكون عن طريق العمل على مواجهة أية عوامل تجعل من ذاته مهددة من طرف حتميات خارجية، كالعلاجات الجراحية على مستوى الدماغ مثلاً، لأن هذا الأمر يؤدي إلى تغيير جذري على مستوى هويته، ومن مخاطرها: انقسام الهوية - التفرع -، أي تفرع الهوية الفردية إلى وحدات غير متجانسة، ولهذا يجب الحفاظ على مبدأ الهوية المرتبط بالاستمرارية في الزمن وعدم انقسامه،

لأن الهوية لا تقبل الانقسام إلى قسمين، لأن الشخص يجب أن يكون هو في كل مراحل تطوره لا غيره.

وهذا يعني أن هناك استمرارية في الزمن للهوية الفردية، حيث يؤكد كورت لووين kurt lewin (1890-1947)، فيما يتعلق بالهوية الجينية: لأن الفرد يكبر ويشيخ، ومع ذلك تبقى هويته تكوينية بالنسبة إلى نفسه". (بيارتي، 2022، صفحة 180).

وكذلك أثبتت "بارفيت" في مسألة الهوية الشخصية أن الهوية ليست شيئاً محدداً مسبقاً، بعوامل طبيعية مادية-علماء الطبيعة- لأن الهوية الحقة بالنسبة لها يمكن الحفاظ عليها في غياب الاستمرارية الكاملة والأصيلة لأجسادنا، لأنها ترتبط بسلسلة التجارب المختلفة التي ترتبط بالأنما. أي أن الجانب النفسي- كالذكريات... إلخ، والسوسيولوجي- المسار الاجتماعي، كاللغة والطقوس... إلخ.

كما نجد وجهة نظر أخرى عند "بول ريكور" الذي حاول أن ينظر إلى الهوية من منظور جديد، والتي تتحدد انطلاقاً من علاقة الإنسان بذاته وبالعالم الخارجي وكذلك بالآخر، ومن خلالها سيتجلى مصير الإنسان وغاياته في الحياة، وتظهر الهوية عنده في مستويات: هي الهوية المتطابقة، والذاتية، والسردية، حيث أن الهوية تتجلى من خلال هذه الأنماط الثلاثة، أي في إدراك الرابط بين الذات وما يترتب عليه من ارتقاء وعينا بحركية هذه الأنا داخل الزمن المتواصل (ميلود، 2023، صفحة 48).

وفي الأخير نخلص إلى أن هناك انعكاسات سلبية للبحوث البيوتكنولوجية من جميع الجوانب سواء كانت على الفرد أو الجماعة، وذلك نتيجة ترك الحرية أمامها، حيث عملت على تغيير الهندسة الاجتماعية مما انجر عنه فقدان الآلي لجوهر الفرد وهويته دون وعي منه، ويرجع ذلك لاندماجه الآلي وانصهاره في المادية التي جرفه تيارها عن المنحى الإنساني والجوهر الطبيعي للخلق. بالإضافة إلى أن التدخل الوراثي في تغيير الصفات الوراثية أو اختيارها هو ما يقف حاجزاً أمام رغبات وميول وحرية واستقلال الطفل الذي ينمو نمواً غير طبيعياً نتيجة تبعيته لبرنامج وراثي، الأمر الذي يحول دون تشكيل هويته ووعيه الذاتي، مما يجعله غريباً عن ذاته لا يعي وجوده ولا وجود الآخرين.

خاتمة:

وما يتجلى من خلال ما سبق أن الذات الإنسانية في القرن 20 قد أنهكتها التطورات والتدخلات العلمية والتقنية التي غيرت النظرة للإنسانية، وزلزلت التصور القديم الذي يعتبر الإنسان فيه محورا للكون، حيث تمت نمذجة الإنسان وفق قوالب مادية زمكانية صرفة، ومن ثمة صياغة مفاهيم جديدة للإنسان، باعتباره مجرد كائن يتوالد وينمو في المخابر، وهو الذي يبرز في التعنيف الذي سلط على الإنسان وأصبح يهدد وجوده ومصيره، حيث أغفل أو أهمل الإنسان كمركز لهذا العالم وصانع له، فلم تنتظر إليه كذات فاعلة وواعية، بل نظرت إليه بمنظار مادي اختزالي أفقده حقيقته ووجوده وجرده من إنسانيته، وهذا ما يستدعي إعادة النظر في هذه البحوث البيوتكنولوجية، مع ضرورة مراقبة الفعل الإنساني للحد من انعكاساته السلبية خصوصا على الهوية الإنسانية.

لنصل إلى أن الثورة البيوتكنولوجية قد تركت أزمات وجودية تستدعي إعادة النظر في انعكاساتها، ولا يكون ذلك إلا انطلاقا من محاولة بناء الشخصية وتقويتها في ظل التطور العلمي المعاصر، والذي يعد بمثابة المشروع الوجودي الذي يسعى الإنسان إلى بلوغه بغيته السيطرة على نفسه أولا وعلى العالم الذي حوله ثانيا، ليصبح طرفا فعالا قادرا على إدارة ما حوله بكل حرية، مع محاولة ضبط البحوث البيوتكنولوجية وتقنينها وجعلها تسير وفق الغايات القيمة البيوأيقية.

ومنه فالعلاج الوحيد لهذا المرض الذي أصاب الإنسان جراء سوء استخدام التكنولوجيات الحيوية هو ضرورة الرجوع إلى الذات التي تم تغييبها، والتي هي أساس فهم ما يحيط بالإنسان والتكيف معه، وتغييره والتحكم فيه، وهو ما أشار إليه "الكسيس كاريل" في كتابه الإنسان ذلك المجهول أن العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر هو معرفة أكثر عمقا بأنفسنا، فمثل هذه المعرفة ستمكننا من أن نفهم ما هي العمليات الميكانيكية التي تؤثر بها الحياة العصرية في وجداننا وجسمنا، وهكذا سوف نتعلم كيف نكيف أنفسنا مع الظروف المحيطة بنا، وكيف نغيرها إذا لم يعد هناك مفر من أحداث ثورة فيها.

إضافة إلى ذلك نقول أنه من أجل الحفاظ على الهوية الإنسانية في ظل التطورات البيوتكنولوجية يجب على الهيئات المختصة والمنظمات الدولية فرض قوانين صارمة على مثل هذه البحوث الخطيرة والتي يجب أن تستغل في صالح الإنسان والإنسانية، لا لأغراض اقتصادية سياسية أنانية، مع ضرورة عقلنتها وأخلقتها وهو ما يعرف بالبيوايثيقا أو الأخلاق البيولوجية la bioéthique.

- قائمة المراجع:

1. المراجع بالأجنبية:

2. Alain Renaut .(1995) .*l'individu- réflexions sur la philosophie des sujet* .paris: Hatie.
3. Bergson, H. .. (1993). *essai sur les données immédiates de la conscience*. paris: quadrige, p.u.f.
4. Bergson, H. (1957). *écrits et paroles*. paris: recueilis par R-M, mosée bastide,.
5. Dictionnaire Hachette Encyclopédique .(2001) .*Dictionnaire Hachette Encyclopédique* .paris./ :
6. Jonas, H. (1994). *surcroît de responsabilité et perplexité esprit*. (n°= 206), 48.
7. Pascal bolch, v. d. (2007). *l'identité génétique de la persone entre transparence et opacité*. paris: dalloz.
8. petit larousse .(2013) .*larousse* .paris: direction générale: sabelle jeuge-maynant.
9. petit Larousse illustré .(2013) .*larousse* .paris: direction générale: sabelle jeuge-maynant.
10. philosophie zoologique Lamarck .(1907) .*philosophie zoologique* .paris :librairie Schleicher.
11. réflexion éthique sur les biotechnologies, vol :8, n : 01, . Gilles Voyer .(2010) . réflexion éthique sur les biotechnologies.21-20 ، (01) 8 .

المراجع بالعربية:

12. ابن منظور .(2005) .*لسان العرب*، ج8. دار الكتب العلمية: بيروت.
13. العربي ميلود .(2023) .*جدل الهوية وتجربة الغريب. مخبر الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات* ، 48.
14. الكيس ميكشلي .(1993) .*الهوية*. دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعة.
15. انيسيس فوكوياما .(2006) .*مستقبلنا بعد البشري - عواقب ثورة التقنية الحيوي*. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والأبحاث الإستراتيجية.

16. بوفتاس عمر. *البيوايثيقا الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا*. إفريقيا الشرق.
17. جاك أول. (2004). *خدعة التكنولوجيا*. (فاطمة نصر، المترجمون) /: مكتبة الأسرة.
18. جميل صليبا. (1982). *المعجم الفلسفي*، ج1. بيروت: دار النشر اللبناني.
19. حسن حنفي حسنين. (2012). *الهوية*. /: المجلس الأعلى للثقافة.
20. ديفيد يبارتي. (2022). *الهوية وإحراجاتها من الهوية الشخصية إلى الاعتراف الاجتماعي*. 180.
21. صبري الدمرداش. (1997). *الاستنساخ قبلية العصر*. الكويت: دار الفكر الحديث.
22. غاستون باشلار. (1992). *جذلية الزمن* (الإصدار ط3). (خليل أحمد خليل، المترجمون) لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
23. فتحي المسكيني. (2001). *الهوية والزمان ، تأويلات فينومينولوجية لمسألة النحن*. بيروت: دار الطليعة.
24. كلود دوبرو. (2007). *الممكن والتكنولوجيات الحيوية* (الإصدار ط1). (ت: ميشال يوسف، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
25. م. هيدجر. (2001). *رسالة في النزعة الإنسانية*. (مينة جلال، المترجمون) /: مدارات فلسفية.
26. هنري برغسون. (1984). *التطور الخلاق*. (محمد محمود قاسم، المترجمون) القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد.
27. هنري برغسون. (1963). *الطاقة الروحية*. (سامي الدروبي، المترجمون) دمشق: دار الفكر العربي.
28. يورغين هابرماس. (2006). *مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية* (الإصدار ط1). (ترجمة: جورج كتورة، مراجعة: انطوان هاشم، المترجمون) بيروت: المكتبة الشرقية.